﴿وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ٧٤ وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥﴾ [الأنبياء: 74 - 75]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

عـطْـفُ قـصّـةِ لوطٍ بتفاصيلِها على قصّة عمِّه إبراهيمَ عليه السلام

لـمّا ذَكَرَ اللّه سبحانه ما أنعمَ به على إبراهيمَ عليه السلام، من نِعَمٍ شتّى، على رأسِها ما وهبَه من ذريّةٍ صالحةٍ، من الأبناءِ الهادين، والأحفادِ العابدين، الّذين كانوا أنبياءَ مُبلِّغين، ورُسُلًا مُصْطفَينَ، وذلك من أعظمِ الإنعامِ وأرْقاهُ، أتبعَهُ بذكرِ ما أنعمَ به على مَن هاجَرَ معه، فارًّا بدينه، وهو لوطٌ ابنُ أخيه، لِما جَمَعَ بينَهما من قبلُ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حُكۡمٗا﴾: (حكم) أصلٌ واحدٌ، وهو المَنْعُ، وأوَّلُ ذَلِكَ الحُكْمُ، وهو المَنْعُ مِنَ الظُّلْم، وسُمّيتْ حَكَمَةُ الدّابَّةِ لِأنَّها تَمْنَعُها من اختلال سيْرِها، والحِكْمَةُ هَذا قياسُها، لِأنَّها تَمْنَعُ صاحبَها مِنَ الجَهْلِ[2]، والحُكم، بالضّمّ: القضاءُ في الشّيء بأنّه كذا أوْ ليس بكذا، سواءٌ لزم ذلك غيرَه أم لا، هذا قولُ أهلِ اللّغة، وخصّصَ بعضُهم، فقال: القضاءُ بالعدل، نقلَه الأزهريُّ[3]، والحُكْمُ أعمُّ منَ الحِكْمَةِ، فكلُّ حِكْمَةٍ حُكْمٌ، وليس كلُّ حُكْمٍ حِكْمَةً، فإنّ الحكمَ أن يُقضى بشيءٍ على شيءٍ[4]، ولهذا العمومِ قيل في معنى الحُكم في الآية: الحِكْمةُ، والنُبوةُ، والعِلمُ والمعرفةُ بأمرِ الدّين وما يقع به الحُكمُ بين الخُصومِ[5].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 453.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حكم).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (حكم).
(4) الراغب، المفردات: (حكم).
(5) القرطبي، الجامع: 11/ 288.

2) ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ﴾: (نجو) أصلان، يدلُّ أحدُهما على كَشْطٍ وكَشْفٍ، والآخرُ على سِترٍ وإخفاءٍ، والمقصودُ هنا الأوّلُ، فنجا الإنسانُ يَنجو نجاةً، ونَجاءً في السّرعة، وهو معنَى الذّهابِ والانكشافِ منَ المكان[1]، وكلُّ ما في القرآن من هذا التّركيب فهو بمعنَى الخُلوصِ من خطرٍ مُحدِقٍ أو عذابٍ أو غرقٍ أو كربٍ... إلخ، نحوَ قوله تعالى: ﴿نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [القصص: 25]، ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ [الأنعام: 64][2] وهو بهذا المعنى في هذه الآية، فقد خُلِّص لوطٌ بفضل الله ممّا حلَّ بقومِه.

3) ﴿ٱلْقَرْيَةِ﴾: (قري) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على جمعٍ واجتماعٍ، ومن ذلك القريةُ، سُمّيتْ قريةً لاجتماع النّاسِ فيها، ويقولون: قَريتُ الماءَ في المِقراة: جمعتُه، والمِقراةُ: الجفنةُ، سُمّيتْ لاجتماع الضّيفِ عليها، أو لِما جُمع فيها من طعامٍ[3]."وفي كفايةِ المتحفّظ: القريةُ: كلُّ مكانٍ اتّصلت به الأبنيةُ، واتُّخذ قرارًا، وتقعُ على المدن وغيرِها، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: 82]، قال سيبَوَيه: هذا ممّا جاء على اتّساعِ الكلامِ والاختصارِ، وإنّما يريدُ أهلَ القريةِ فاختصرَ"[4]، ولم يأتِ منَ التّركيب في القرآن إلّا القريةُ ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [يس: 13]، وجمْعُها (القُرى) ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: 92][5]، فلا يخرجُ معنى القريةِ في الآية عن معنى الاجتماعِ لأناسٍ كثيرين داخلَ أبنيةٍ متّصلةٍ، وبذلك تتميّزُ عن أمكنةِ أهلِ الخيام والبدْوِ.

4) ﴿ٱلْخَبَـٰٓئِثَ﴾: جمعُ خبيثة، (خبث) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على خلافِ الطَّيِّبِ، يقال: خبيثٌ، أي: ليس بطيّبٍ[6]، والخَبيثُ أيضًا: ما يُكرَه رداءةً وخساسةً، محسوسًا كان أو معقولًا، وأصلُه الرّديء الجاري مجرَى خَبَثِ الحديد، وذلك يتناولُ الباطلَ في الاعتقادِ، والكذبَ في المقالِ، والقبيحَ في الفعال[7] فيكونُ معنى الخبائث في قوله تعالى: ﴿ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نجو).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نجو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قري).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (قري).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قري).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خبث).
(7) الراغب، المفردات: (خبث).

﴿كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ﴾ خلافَ الطّيّبات، وهي كنايةٌ عن إتيانِهم الذّكورَ خاصّةً، وسائرِ ما كانوا يأتونَه منَ المنكرات[1].

5) ﴿فَٰسِقِينَ﴾ (فسق) أصلٌ واحدٌ، وهو الخروجُ عنِ الطّاعة، تقولُ العربُ: فَسَقَتِ الرُّطَبَة عن قِشرها: إذا خرجت، والفأرةُ فويسِقةٌ[2]، وجاء هذا في الحديث: قال رسولُ الله ﷺ: "خمِّروا الآنيةَ، وأجيفوا الأبوابَ، وأطفئوا المصابيحَ، فإنّ الفويسِقةَ ربّما جرّتِ الفتيلةَ فأحرقت أهلَ البيت"[3]، والفِسقُ أعمُّ منَ الكفر؛ فكلُّ كفرٍ فسقٌ وليس كلُّ فسقٍ كفرًا، وأكثرُ ما يقال الفاسِقُ لمنِ التزمَ حُكمَ الشّرع وأقرَّ به، ثمّ أخلَّ بجميع أحكامِه أو ببعضِها، وإذا قيل للكافر الأصليِّ: فاسِقٌ، فلأنّه أخلَّ بحُكمِ ما ألزمَه العقلُ، واقتضتْه الفطرةُ[4]، ولهذا أُطلقَ على قومِ لوطٍ الكافرين، وصفُ ﴿فَٰسِقِينَ﴾ لشذوذِهم وخروجِهم عنِ الفطرةِ فأخلّوا بما تَقتضيه وتتطلَّبُه.

6) ﴿رَحۡمَتِنَآۖ﴾ (رحم) أصلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على الرِّقَّةِ والعَطْفِ والرَّأْفَةِ، يقال من ذلك: رَحِمَهُ يَرْحَمُهُ، إذا رقّ له وتَعَطَّفَ عَلَيْهِ، والرُّحْمُ والمَرْحَمَةُ والرَّحْمَةُ بمعنىً، والرَّحِمُ: علاقةُ القرابة[5]، والرّحمةُ من صفات الله ﷻ، وعلى هذا قولُ النّبيّ ﷺ ذاكرًا عن ربّه: "أنّه لمّا خلقَ الرَّحِمَ قال لها: أنا الرّحمن، وأنتِ الرّحِمُ، شققتُ اسمكِ من اسمي، فمَن وصلكِ وصلتُه، ومَن قطعَكِ بَتَتُّهُ"[6]، ومذهبُ السّلفِ وسائرِ الأئمّةِ إثباتُ صفة الرّحمةِ وغيرِها منَ الصّفات الّتي ورد بها الكتابُ والسّنّةُ، ومنعُ التّأويل الّذي يَصرفُها عن حقائقِها اللّائقةِ بالله تعالى[7]، فمعنى ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ﴾ أدخلنا لوطًا في رحمتنا بإنجائِنا إيّاه، ممّا أحلَلْنا بقومه منَ العذاب والبلاءِ[8].

(1) الواحديّ، البسيط: 15/ 130.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فسق).
(3) رواه البخاريّ في صحيحه، الحديث رقم: (6295).
(4) الراغب، المفردات: (فسق).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رحم).
(6) أخرجه أبو داود، الحديث رقم: (1694)، والترمذي، الحديث رقم: (1907)، وأحمد، الحديث رقم: (1659).
(7) ابن أبي العزّ، شرح الطّحاوية، ص: 472.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 473.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

فضائلُ لوطٍ عليه السلام ونجاتُه ممّا حلَّ بقومِه من هلاكٍ ساحقٍ

يُخبرُ اللّه سبحانه أنّه آتى لوطًا النّبوّةَ وفصْلَ القضاءِ بين الخصومِ وعلْمًا بأمرِ اللّه ودينِه، ونجّاه من قريتِه (سدوم) الّتي كان أهلُها يعملون الخبائثَ، إنّهم كانوا بسبب الخبائثِ والمُنكراتِ الّتي يأتونَها أهلَ سوءٍ وقُبْحٍ، خارجين عن طاعةِ اللّه، وأتمَّ اللّه عليه النّعمةَ فأدخلَه في رحمتِه، بإنجائِه ممّا حلَّ بقومه؛ لأنّه كان منَ الّذين يَعملون بطاعةِ اللّه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في الآية الكريمةِ:

للجُملِ دورٌ في تواصلِ المعنى أو تلاحُقِه

استهلّ قولُه تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ بحرف الواو، ويحتملُ أن تكونَ للعطفِ أو الاستئناف، فمن جعلها للعطفِ جوّزَ أن تكون هذه الجملةُ معطوفةً على قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ﴾، أو أن تكونَ معطوفةً على قوله: ﴿ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ [الأنبياء: 51][2]، ومن جعلَها للاستئناف قال بأنّ ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ﴾ منصوبٌ بفعلٍ (اذكُرْ) مُقدّرًا، وجملةُ ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾ مستأنفةٌ[3]، ونلحظُ في كلا التّوجيهَين الإعرابيّين نُكتةً لطيفةً؛ إذِ العطفُ يدلُّ على الاشتراكِ في الإيحاءِ والإتيانِ لكلِّ خيرٍ وفضيلةٍ سابقةٍ، والاستئنافُ يدلُّ على التّميّزِ والاستقلالِ في الحكمِ بيانًا لمكانتِه وإظهارًا لفضلِه.

نُكتةُ حذْفِ الفعلِ للمفعول ﴿وَلُوطًا﴾:

الاهتمامُ بشأنِ لوطٍ عليه السلام مُرتكَزٌ مهمٌّ في بناءِ القصّةِ

حُذف الفعلُ النّاصبُ لـ﴿وَلُوطًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وتقديرُه: (اذكر أو آتينا) اهتمامًا بالنّبيِّ لوطٍ عليه السلام وإبرازًا له؛ لأنّه مُرتكَزُ الحدثِ ومصبُّ الاهتمامِ وبُؤرةُ الكلام، فإن

(1) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 328.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 162.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 69.

كانتِ الجملةُ استئنافيّةً فقد حُذف الفعلُ (اذكر) تفخيمًا لشأن المذكورِ وإعلاءً لدورِه البارزِ، وإن كانتِ الجملةُ معطوفةً فتكونُ من باب الاشتغالِ بتقديرِ: (وآتينا لوطًا آتيناه) ويكونُ الفعلُ واجبَ الحذفِ لوجودِ مُفسّرِه، والنّصبُ هاهنا أحسنُ منَ الرّفع؛ لأنّ قبْلَ (آتينا) فعلٌ وهو قولُه: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ﴾[1]، وعلى التّوجيهَيْن للجملةِ استئنافًا أو عطفًا يكونُ هنالك حذفٌ للفعل إبرازًا للمفعول واهتمامًا بشأنِه؛ لكوْنِه مناطَ الحدث والعنصرَ الأبرزَ للقصّة، والدّليلُ على الاهتمامِ بالمتحدَّثِ عنه أنّه ذُكر مرّتين؛ تارةً بالاسم الظّاهر ﴿وَلُوطًا﴾ وأخرى بالضّميرِ العائدِ إليه في ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾، فدلّ على أنّه محطُّ الاهتمام والمقصودُ بالتّنويهِ به وبشأنِه، وفي تركيب (الاشتغال) يُذكرُ الحدثُ مضمرًا مبهمًا فتتعلّقَ النّفوسُ بذكره، حتى إذا ما ذُكر زال الإبهامُ عنه، فيكونَ من إبهامِ الأمر أوّلًا ثمّ العملِ على تفسيره وبيانِه، وبذلك يتحقّقُ مزيدٌ منَ الإصغاء والإقبالِ على الإنصات.

علّةُ ذكرِ قصّةِ لوطٍ بعد قصّةِ إبراهيمَ عليه السلام:

مقاومةُ الأنبياءِ لأهـلِ الـشّـركِ والـفـسـادِ في أقوامِهم مَلمحٌ مشتركٌ بينهم

في قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أُعقبت قصّةُ إبراهيمَ بقصّة لوطٍ عليه السلام للمناسبةِ بينهما، وخُصّ لوطٌ بالذّكر من بين الرُّسل؛ لأنّ أحوالَه تابعةٌ لأحوال إبراهيمَ عليه السلام، في مقاومة أهلِ الشّرك والفسادِ، وقد تأخّرَ ذكرُ قصّتِه بعد أن جرى ذكرُه تبعًا لذكرِ إبراهيم عليه السلام، تنبيهًا على أنّه بُعث بشريعةٍ خاصّةٍ، وإلى قومٍ غيرِ القوم الّذين بُعث إليهم إبراهيمُ عليه السلام، وإلى أنّه كان في مواطنَ غيرِ المواطن الّتي حلَّ فيها إبراهيمُ عليه السلام، بخلاف إسحاقَ ويعقوبَ عليهما السلام في ذلك كلِّه[2].

(1) الواحديّ، البسيط: 15/ 129.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 111.

نُكتةُ إغفالِ ذكرِ قومِ لوطٍ عليه السلام:

تحقيرُ العُصاة بإخمالِ ذكرِهم وقمْعِ باطلِهم

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، اختصاصُ لوطٍ عليه السلام بالذّكر، وإغفالِ ذكرِ قومه، لحقارتِهم ومهانتِهم وسوءِ أفعالِهم، وخُبثِ نفوسِهم، حتّى انحطّوا عن مرتبةِ الحيوانيّةِ، في شذوذِ الفطرة، كما أنّ في ذكرِ لوطٍ منفردًا عن قومه، تنويهًا بشأنه، ورفعةً لذكرِه، وبيانًا أنّه لا يضرُّ النّبيَّ أنْ يكون قومُه مُفسدين غيرَ مَهديّين، فإنّه جاء لهداية الضّالّ وإصلاحِ الفاسدِ، فإن لم يَصلحوا دمّر الله عليهم وأنشأ قومًا آخَرين[1].

دلالةُ الفعل ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾ في الآية:

تجديدُ التّذكير بمطلقِ الإنعامِ على الأنبياء الكرامِ

تكرّرَ الفعلُ ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾؛ للدّلالة على مُطلقِ الإنعام، على الأنبياء الكرام عليهم الصّلاة والسّلامُ، وكذلك لتطْريةِ الذّكر بَعْدَ البُعْدِ، وليظهر وجهُ عطْفِ الآية، على قوله تعالى: ﴿*وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ [الأنبياء: 51][2]، والإتيانُ تأكيدٌ للعطاء المتلاحقِ الّذي لا ينضبُ، والّذي تلوّن في الآيات السّابقةِ بين المادّة والمعنَى، واتّسمَ بالخصوصيّةِ المُنوّهِ بها في كلّ قصّةٍ تندرجُ في هذا المجالِ، ونلمحُ في الفعل (آتى) إيصالَ العطاء والكرامةِ بصورة الإقبالِ والمجئ الدّالّةِ على الرّغبة والمحبّةِ في الإتيان كما في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: 177] فيكونُ دالًّا على الإنعامِ المُصاحبِ لإتيان صاحبِه معه، وهو أجلُّ صور التّفضيلِ والإكرامِ.

دلالةُ إسنادِ الفعل إلى ضميرِ العظمةِ (نا):

عطاءُ العظيمِ لا يكونُ إلّا عظيمًا ومُناسبًا لقدْرِه

أُسند فعلُ الإيتاء ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ إلى ضميرِ (نا)؛ للدّلالة على عظمةِ المُؤتي سبحانه،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4896.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 112.

فعطاءُ العظيم عظيمٌ يليقُ بقدْرِه، وفيه أيضا تعظيمٌ لقدْرِ النّبوّةِ والعلْمِ الّذي يهَبُه الله ﷻ، لمَنِ اصطفَى من عباده، كما يحصلُ التفخيمُ لفعل الإتيان ويعظُمُ أثره ويجلُّ خطرُه على من سيق له العطاءُ والنّعمةُ.

دلالةُ لفظِ ﴿حُكْمًا﴾ في الآية:

اختلفَ المفسّرون في تحديد معنَى الحُكم والعلم، في قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ على أقوال، فقيل: حُكْمًا أي حِكمةً، والمرادُ بها ما يجبُ فعله، أوْ نبوّةً، فإنّ النّبيَّ حاكمٌ على أمّته، أوِ الفصلُ بين الخصوم في القضاء، وقيل حفظُ صحفِ ابراهيم عليه السلام وفيه بُعْدٌ[1].

الحكمةُ تمنعُ صاحبَها منَ الزّلل في القولِ والعملِ

وقد حاول بعضُ العلماء التّرجيحَ بدلالة اللّغة، فقال إنّ أصلَ الحُكْم في اللّغة: المنعُ، وأصلُه منَ الحَكَمَة، الّتي توضَع في حنكِ الفَرَس؛ لأنّ الفَرسَ قد يَشْرُد بصاحبِه، أو يتّجهُ إلى جهة غيرِ مرادةٍ لراكبه؛ لذلك يوضعُ في حنكِه اللّجامُ أوِ الحَكَمةُ، وهي قطعةٌ منَ الحديد لها طرفان، يتمّ توجيهُ الفرسِ منهما يمينًا أو شمالًا، ومن ذلك الحِكْمةُ، وهي وضْعُ الشّيء في موضعِه، ومنه الحُكْمُ، وهو: وضعُ الحقِّ في مَوْضعه بين المُتخاصمَين[2].

والقولُ بأنّ الحُكمَ هو الحكمةُ موافقٌ للسّياق، فإنّ الحكمةَ الّتي أوتيَها ذلك النّبيُّ الكريمُ، هي الّتي استطاع بها أن يُعاشرَ أولئك الشّواذَّ عنِ الطّبيعةِ الإنسانيّةِ الرّشيدةِ وهو يَدعوهم، ويأخذُهم بالهداية والإرشادِ، والرّفقِ في القول، ويَستمرُّ في رعايتِهم هاديًا مرشدًا، من غيرِ سَأمٍ ولا مَلَلٍ[3].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 69.
(2) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 4/ 743، والشّعراويّ، التّفسير: 13/ 9594.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4896.

دلالةُ عطفِ ﴿وَعِلْمًا﴾ على ﴿حُكْمًا﴾ في الآية:

بيانُ أنّ العلمَ تحقيقٌ والحكمَ تطبيقٌ

عُطف العلمُ على الحُكم، في قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ للاقتران الخياليّ بينهما؛ إذِ الحكمةُ والنّظرُ الثّاقبُ في عواقب الأمورِ وتَمْييزِ صحيحِها من فاسدِها تستدعي العلْمَ بل هي غايتُه وثمرتُه، ومن ثمَّ بدأ بالحُكم وعطَفَ العلمَ عليه للدّلالةِ على أنّه المقصودُ الأهمُّ، وما العلمُ إلّا وسيلةٌ من وسائله وآلةٌ لتحقيق مقاصدِه، فيكونُ تقديمُ (الحكم) على (العلم) من تقديم الأشرفِ والأهمِّ، وحالُ هذا النّبيِّ الكريم مع قومه يَستدعي تقديمَ الحكمةِ على العلم؛ إذِ العلمُ والمعرفةُ لا تَكفيان للدّعوةِ مع من تجرّدوا عن أبسطِ القيمِ الخُلقيّةِ الإنسانيّةِ، فتحتاجُ الدّعوةُ إلى الحكمةِ والتّأنّي بُغيةَ المعالجةِ، وقد ذكرَ بعضُ العلماء في علّةِ هذا العطف: أنّ العلمَ أنْ تُحقّقَ وتَعرِفَ، أمّا الحكمُ فسلوكٌ وتطبيقٌ لما تَعلّمَ، فالعلمُ تحقيقٌ والحكمُ تطبيقٌ[1]، ولكنْ يُشكلُ على هذا الكلام ذِكْرُ الحُكم أوّلًا، والعلمِ ثانيًا، ولهذا فالقولُ أنّ الحكمَ هو النّبوّةُ، والعلْمُ، هو علمُ الشّريعةِ الّذي يختصُّ اللّه بعلْمِه الأنبياءَ ﷺ أوفقُ للتّرتيب[2]، فيَصطفي اللّه من شاء بالنّبوّةِ، ثمّ يَفتحُ عليه من علمِ الشّريعةِ، ما يحتاجُه النّاسُ في عباداتهم.

سرُّ تنكيرِ لفظَيْ: ﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾:

إيتاءُ اللهِ نبيَّه لوطًا ﷺ حُكمًا كريمًا وعلمًا عظيمًا

في قَوْله تَعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ورد لفظا ﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ نكرتَيْن، والنّكتةُ البلاغيّةُ في ذلك أنّ التّنكيرَ يدلُّ على الإبهام، والإبهامُ له علاقةٌ مباشرةٌ بالتّعظيم والتّفخيم، فإنّ من أرادَ أن يعظّمَ شيئًا أبهمَه بحيث لا يُكتَنَه وصفُه وتذهبَ النّفسُ فيه كلَّ مذهب، فقد آتى اللّه ﷺ نبيَّه لوطًا ﷺ حُكمًا وعلمًا عظيمًا حتى

(1) الشّعراويّ، التّفسير: 13/ 9594.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 112.

إنّه أبهمَ وصْفَه، كما يحتملُ التّنكيرُ الدّلالةَ على كثرةِ صور الحكمةِ وتنوّعِ أشكال العلْمِ وأفرادِه، ولذا عبّرَ عنهما بالمصدرِ الدّالِّ على الحقيقةِ والماهيةِ، فكأنَّ نفسَ الحُكمِ والعلمِ قد أوتيه هذا النّبيُّ الكريمُ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ هذا الحكمَ والعلمَ نوعان خاصّان من أنواعِ الحُكمِ والعلْمِ.

دلالةُ العطْفِ بالواوِ في قوله: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ﴾:

عُطفَ قولُه تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ﴾، على ما قبلَه، بحرف الواو، الدّالِّ على الجمعِ والاقترانِ، بمعنَى أنّ اللّه جمعَ للوطٍ عليه السلام، أصنافَ النِّعم، فعطفَ على نعمةِ إيتاءِ الحُكم والعلمِ، نعمةَ التّنجيةِ من أهل القريةِ، الّذين كانوا يعملون الخبائثَ، وما نزل بهم من عذابٍ[1]، وبين المُتعاطِفين شبْهُ التّضادّ؛ إذ إتيانُ العلم والحكم منحةٌ وتحليةٌ وجلبٌ للمصالح بصورة الإتيانِ، والتّنجيةُ منَ القومِ الفاسقين تخليةٌ وإنقاذٌ وسلبٌ بصورة الإخراج، فالإتيانُ إدخالٌ والتّنجيةُ إخراجٌ، فيتحقّقُ الطّباقُ بين ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾ و﴿وَنَجَّيْنَٰهُ﴾ وهو من مُستدعيات العطْفِ للاقتران بين المُتضادَّين وشبْهِهما في الخيال، وفي تقديم الإيتاءِ على التّنجية إشارةٌ إلى علّة التّنجيةِ وهي امتلاكُه عليه السلام العلمَ والحكمةَ الّتي مَنعَها قومَه فضلّوا عن سواء السّبيلِ، وفي هذا العطف إغداقٌ منَ اللّه تعالى بالنِّعم على لوطٍ عليه السلام، وفيه رعايةٌ لرمزيّةِ النّبوّةِ المكرّمةِ، في شخصِ هذا النّبيِّ المُرسلِ، وعنايةٌ بمَلمحِ العفّةِ والطّهرِ اللّذين يتجسّدانِ فيه، ويمثّلانِ نموذجًا متفرّدًا، يعكسُ الثّباتَ على الحقّ، والالتزامَ بالمبادئ، والحفاظَ على الفطرة النّقيّةِ، بعيدًا عنِ الفسادِ ومسالكِه ومَهاويه.

عطفُ نِعمةِ التّنجيةِ على نعمةِ إتيانِ الحُكمِ والعلمِ مزيدُ إنعامٍ

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ﴾ في الآية:

عبّرَ النّظمُ الكريمُ بالفعل الماضي ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ﴾ في قوله تعالى:

تحقّقُ نجاةِ لوطٍ عليه السلام من عذاب قومِه

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 162.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ﴾، للدّلالة على تحقّقِ نجاتِه من عذاب القريةِ الفاسقِ أهلُها، وقد ذُكر في هذا الموضع نجاتُه وحدَه، ولم يُذكر نجاةُ أحدٍ معه، وذلك أنّ السّياق يدورُ حول ما اختصَّه اللّه به، وتفضّلَ عليه من نِعم، كما أنّ استعمال الماضي، مناسبٌ لسردِ أخبارٍ مضت من قصصِ الأنبياءِ السّابقين، لأخذ الدّروسِ والعبرِ منها.

وتحقيقٌ للتّوافقِ بين المتعاطفَين؛ إذ كلٌّ منهما ورد بصورة الماضي ممّا يدلُّ على تحقّقِ الوقوعِ الَّذي لا سبيلَ لإنكاره، والفعلان (آتينا ونجّينا) منَ الأفعال المُتعدّيةِ بالحرف؛ لكنَّ الفعلَ (أتى) متعدٍّ لواحدٍ ودخلت عليه الهمزةُ فعُدّي إلى اثنين، والفعلُ (نجَى) لازمٌ وعُدّيَ بالتّضعيف إلى واحد، وفي التّعديةِ دلالةٌ على وصول أثرِ الحدثِ إلى المفعول، فيكونُ دالًّا على حصول الإتيانِ والتّنجيةِ بشكلٍ قطعيٍّ، وإنّما عُدّي الفعلُ (نجَى) بالتّضعيف دون الهمزةِ لغرض إيجادِ التّكثيرِ في الفعل والمبالغةِ في حصولِه ووقوعِه مع التّعديةِ، ومن ثَمّ قال (نجَّينا) دون (أنجينا)، ولا يخفَى أنَّ لوطًا عليه السلام خرج منَ القوم قبْلَ هلاكِهم بمدّةٍ وجيزةٍ، فيحتاجُ الفعلُ الدّالُّ على نجاته إلى مبالغةٍ لصعوبة إخراجِه وعدمِ وقوعِ العذابِ عليه.

دلالةُ إسنادِ الفعل ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ﴾ إلى الضّمير (نا):

عـظـمـةُ الـلـه ﷻ في إنجائِه نبيَّه لوطًا منَ العذابِ الفظيعِ

في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ﴾، أُسندَ الفعلُ (نَجَّى) إلى ضمير العظمة (نا) للدّلالة على عظمة المُنجي سبحانه، فبعظمتِه سبحانه أهلك قُرى لوطٍ، واقتلعَها من مواضعِها، ونجّى نبيَّه عليه السلام من ذلك العذابِ الفظيعِ.

نُكتةُ إفرادِ القرية في قوله ﴿مِنَ ٱلْقَرْيَةِ﴾:

جاء لفظُ ﴿ٱلْقَرْيَةِ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ مفردًا، مع أنّها قد وردت مجموعةً في آيات أخرى؛ نحو قولِه تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩﴾ [الحاقة: 9]، فالمُؤتفكاتُ

هي قُرى لوطٍ، وقيل إنّها كانت سبعًا، فعبّر عنها بالإفرادِ، لاتّفاق أهلِها على الفاحشة[1]، فعومِلت معاملةَ الواحدةِ؛ إذِ الجماعاتُ منَ النّاسِ الَّذين يكونون على منهجٍ واحدٍ يُنزّلون منزلةَ شخصٍ واحدٍ، وتُنزّلُ بيئاتُهم المختلفةُ منزلةَ بيئةٍ واحدةٍ، ويُروى أنّها كلُّها قُلبت إلّا واحدةً، لأنّها كانت محلَّ من آمن بلوطٍ عليه السلام، والمشهورُ قلبُ الجميع[2]، وفي هذا الإفراد دلالةٌ على يُسْرِ عملية إنزالِ العذاب بهم، فكأنّ الجمعَ يتلاشى ويصيرُ بمنزلة شيءٍ واحدٍ، وكلُّه هيّنٌ على قُدرةِ اللّه تعالى وعظمَتِه، وأفاد تعريفُ القرية تعيينًا شخصيًّا دقيقًا لها، والتّعيينُ يُضفي تحقيقًا لعمليّةِ التّنجيةِ فلم يَنجُ من مكانٍ مجهولٍ، بل حصلت له النّجاةُ من مكانٍ معروفٍ ومعلومٍ.

شيوعُ الفواحشِ في جميع قُرى لـوطٍ وعـمـومِ العذاب

بَلاغةُ المجازِ في قوله: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ﴾:

نُسِبَ عملُ الخبائثِ إلى القرية في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾، وقدِ اختلف العلماءُ في تخريج هذا التّعبيرِ على ثلاثة أقوالٍ:

حـذفُ المـضـافِ وإقـامـةُ المضافِ إليه مكانَه منَ البيانِ الفصيحِ

أحدُها: وهو المشهورُ أنّه على حذفِ مضافٍ تقديرُه: أهلُ القرية، فيكونُ من مجاز الحذفِ وهو مجازٌ شائعٌ[3].

والثّاني: أنّه مجازٌ مرسلٌ، من باب إطلاقِ اسمِ المحلِّ على الحالّ فالعلاقةُ المحلّيةُ[4].

والثّالثُ: أنّه حقيقةٌ لا مجازَ فيه[5].

والظّاهرُ أنّ القولَ الأوّلَ، هو الصّحيحُ؛ لأنّ أهلَ القرية هم

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 453.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 69.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 162، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 453، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 78، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 69، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 112.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 556.
(5) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/ 544.

الّذين يعملون الخبائثَ دون نفسِ القريةِ، ولأنّ الهلاكَ بهم نزلَ فنجّاه الله تعالى من ذلك[1]، قال أبو علي الفارسيُّ: ودافعُ جوازِ هذا (يقصدُ حذفَ المضاف وإقامةَ المضاف إليه مكانَه)، في اللّغة، كدافعِ الضّرورات، وجاحدِ المحسوسات في غيرِ اللّغة[2]، والسّرُّ في ارتكاب مجازِ الحذف المبالغةُ في التّنجيةِ؛ إذ لم يُنجِهِ الله تعالى من أهلِها فقط، بل نجّاه من كلِّ ما يتعلّقُ بها من دورٍ وأبنيةٍ وزروعٍ؛ لأنَّ العذابَ نزل بالقرية وساكنيها، فيكونُ إيرادُ مجازِ الحذفِ محقّقًا لكمال التنجيةِ ومشيرًا إلى نزول العذابِ بالقريةِ وما فيها من ساكنين، ومن ثَمّ أشارَ إلى علّةِ نزول العذابِ بهم فقال تعالى: ﴿ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ﴾، والذي يُرجّحُ إرادةَ مجاز الحذفِ التّعليلُ الآتي بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ﴾.

نُكتةُ إيثارِ الاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّتِي﴾:

وضْـمُ القريةِ بالفاحشةِ مُتناسبٌ مع فظاعة الفاحشةِ المُرتكَبةِ

في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ﴾، أوثرَ التّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّتِي﴾ وصِلته ﴿كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ﴾، لنُكتةٍ بلاغيّةٍ وهي قصدُ ما في الصّلة منَ الإيماء إلى تعليل الحكم، وهو أنّ سببَ تعذيبِ القريةِ وتنجيةِ لوطٍ عليه السلام منها، أنّها كانت ترتكبُ الفواحشَ، والأعمالَ الخبيثةَ، "ووُصفتِ القرية بأنّها كانت تأتي الخبائثَ، مع أنّ الّذي يفعلُها آحادُها، ولكنْ لأنّها عصتْ وطمتْ، كأنّما صارت الأرضُ ذاتُها تفعلُها"[3]، وأُبرزت بالاسمِ الموصول ﴿ٱلَّتِي﴾، من خلال جملةِ الصّلةِ الواردةِ بهذا المعنى المَسوقِ في الآية، ووصفُ القرية بأنّها تعملُ الخبائثَ مبالغةٌ في شيوع الفاحشةِ في جميع دورِها وأبنيتِها وطُرقها ومزارعِها فضلًا عن مباشرة أهلِها لها، فيكونُ إشارةً إلى علّة نزولِ العذاب بالمكان والمكين معًا.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 162.
(2) الفارسيّ، الإغفال: 2/ 277.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4896.

دلالةُ فعلِ الكينونة ﴿كَانَت﴾ في سياق الآية:

ثبوتُ فعلِ المنكراتِ في أهل قرى لوطٍ المؤتفكاتِ

يدلُّ التّعبيرُ بفعل الكينونةِ ﴿كَانَت﴾ في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ﴾، على اعتياد قومِ لوطٍ عملَ الخبائث، ورسوخِ ذلك في طباعِهم، ولذلك استحقّوا العذابَ، فاستعمالُ الفعلِ الماضي (كان)، يأتي في الأصل لاتّصافِ الاسمِ بالخبر في الماضي مع الانقطاع، غيرَ أنّه يخرجُ لدلالة الدّوامِ والاستمرارِ، بمعنى (لم يزل)، أي أنّها تأتي دالّةً على الدّوام[1]، ويؤيدُ هذا المعنى أنّ خبرها وردَ بصيغة المضارعِ الدّالِّ على التّجدّد الاستمراريِّ للحدث، فهم في حالةِ ممارسةٍ للشّذوذ مُستمرةٍ حتى شملَ جميعَ أزمنةِ الماضي المستمرّ وربّما كان المعنَى أيضًا، أنّها وُصفت بفعل الكينونةِ الماضي ﴿كَانَت﴾، للدّلالة على زمن استغراقِ الوصف، وهو اتّصافُها بالفعل قبل إرسالِ لوطٍ لهم وبقاءِ ذلك الفعل إلى حين الهلاك، ودلالةُ الماضي عليه بهذا المعنى واضحٌ جليٌّ.

نُكتةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿تَّعۡمَلُ﴾ عنِ ارتكاب الفاحشةِ:

قصدُ الفواحش وتكلّفُ عملِها مخالفةٌ أثيمةٌ للفطرةِ السّليمةِ

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ﴾، التّعبيرُ بالفعل (عمل) دونَ غيرِه؛ لأنّ العملَ لا يكونُ إلّا بقصدٍ، فهو أخصُّ منَ الفعل[2]، فقومُ لوطٍ قصدوا إلى قضاءِ شهوتِهم مع الذّكورِ مخالفين الفطرةَ التّي فطرَهمُ اللّه عليها، كما يُطلقُ الفعلُ (عمل) على معالجة الشّيءِ والدّأبِ عليه، ولهذا سُمّيتِ النّاقةُ الدّؤوبُ باليَعْمُلةِ، فقومُ لوطٍ تكلّفوا عملَ الفواحش، ودَأبوا عليها حتى صارت تلك الفاحشةُ المُهلكةُ عملًا لهم يمارسونَه كسائرِ أعمالِهم اليوميّةِ، كما يُشعرُ بذلك أيضًا، استعمالُ صيغةِ المضارعِ ﴿تَّعۡمَلُ﴾ الدّالّةِ على التّكرّر والاستمرارِ.

(1) السّيوطيّ، همع الهوامع: 1/ 120.
(2) الراغب، المفردات: (أمم).

نُكتةُ حذْفِ الموصوفِ في قوله ﴿ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾:

جـــوازُ حـــذفِ المنعوتِ إذا عُقِلَ مـن نـعْـتِـه من فصيحِ البيانِ

تضمّن قولُه تعالى: ﴿كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾، ذكرَ وصفِ ﴿ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾، لموصوفٍ تقديرُه: (الأعمالَ الخبائثَ)، مفهومٍ منَ السّياق، وممّا ذكرَه تعالى في غير هذه السّورة مُضافًا إلى كفرِهم باللّه، وتكذيبِهم نبيَّه، فقد كانوا يأتون الذُّكرانَ في أدبارِهم، ويَتضارطون في أنديتِهم، مع أشياءَ أُخر كانوا يعملونَها منَ المُنكرات[1]، وإنّما حُذف الموصوفُ وأُقيمت الصّفةُ مقامَه؛ لأنّها محطُّ الاهتمامِ؛ دون العملِ المفهومِ من لفظِ (يعملون) فاكتُفيَ بالوصفِ الّذي هو مقصدُ الذّمّ والإنكارِ، ويمكنُ أن يقال: إنَّ الخبائثَ جمعُ خبيثةٍ بمعنى الفَعلةِ الشّنيعةِ القبيحةِ النّجسةِ وهم يُقْدمون على نفس تلك الفَعلةِ المُسمّاة بالخبيثةِ، فلا حاجةَ حينئذٍ إلى تقدير موصوفٍ محذوفٍ، وهذا أبلغُ من وصفِ أعمالِهم بالخبيثةِ؛ لأنّهم يَجترحون بأفعالِهم الدّنيئةِ نفسَ الخُبثِ والنّجاسةِ.

دلالةُ (ال) في لفظِ: ﴿ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾:

بيانُ أنّ فسادَ قـومِ لـوطٍ كان بارتكاب الأعمالِ الخبيثةِ

جاء اللّفظ المجموعُ ﴿ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾، في قوله تعالى: ﴿كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾معرّفا بـ (ال)، وحينئذ تفيدُ (أل) الاستغراقَ والشّمولَ والعمومَ، أي: كانوا يعملون كلَّ عملٍ خبيثٍ، وهو المعنى المناسبُ لتعليل تنْجيتِه من تلك القرية، الّتي لم تتركْ عملًا خبيثًا إلّا اقترفتْه ولا صنعًا منكرًا إلّا اكتسبته، كما يحتملُ أن تكون عهديّةً، فتدلُّ على الخبائث الّتي ذُكرت في آيات أخرى، كقوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: 29].

نُكتةُ الفصل في جملة كونِهم قومَ سوءٍ:

تعـلـيـلُ إهـلاك قـــومِ لـــوط الـسّـيّـئـين الفاسقين

فُصل قَوْلُه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾، عنِ الجملة السّابقةِ، وهي قولُه تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 13/ 548.

ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾، لوجود شبَهٍ كمال الاتّصال بينهما، وهو أنْ تكونَ الجملةُ الثّانية جوابًا لسؤالٍ نشأ عنِ الجملة الأولى فتنفصلَ الثّانيةُ عنها كما ينفصلُ الجواب عنِ السّؤال[1]، فقد وقعت جُمْلَةُ ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾، تعليلًا لسبب إهلاكِهم وتنْجيةِ لوطٍ عليه السلام.

دلالةُ توالي المؤكِّداتِ في الآية الكريمة:

المبالغةُ في التّأكيدِ على عِلّيةِ إهلاكِ قومِ لوطٍ

جاء قَوْله تَعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾، مؤكَّدًا بأداة التّأكيدِ (إنّ) الّتي تُعدُّ أُمَّ المؤكِّدات، ثمّ توسّطه الفعلُ (كان)، الدّالِّ على الدّوامِ والاستمرارِ، وإضافتِهم إلى السَّوء، كأنّما هم أهلُه لا يخرجون عن حيِّزه، ولا يخرجُ عنهم ثانيًا، والتّعبيرِ باسم الفاعلِ في قوله تعالى: ﴿فَٰسِقِينَ﴾ الدّالِّ على الثّبوت والدّوام[2]، كلُّ ذلك مبالغةٌ في التّأكيد على عِلّيةِ إهلاكِهم بذلك العذاب الفظيعِ، وهي سوءُ أفعالِهم وفسقِهم المتكرّر.

نُكتةُ إعادةِ الضّميرِ على أهل القرية ﴿إِنَّهُمْ﴾:

نسبةُ الفسقِ لأهلِ القريةِ دون العمرانِ

في قَوْله تَعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾، أُعيدَ الضّميرُ ﴿إِنَّهُمْ﴾ على أهل القريةِ دون ضمير القرية؛ لأنّ أهل القرية، هم الّذين كانوا يعملون الخبائثَ، دون نفسِ القريةِ، وهم الّذين يصحُّ وصفُهم بالفسقِ والخروجِ عنِ الطّاعة، ولأنّ الهلاك بهم نزل، فنجّى الله تعالى نبيَّه لوطًا عليه السلام من ذلك[3]، وهذا مُرجّحٌ للقائلين بمجازِ الحذف في الآية.

دلالةُ لفظِ (السَّوء) في الآية المحكمة:

غايةُ ذَمِّ قَومِ لوطٍ أن يوصَفوا بأنَّهم السَّوءُ عينُهُ

وُصِف قومُ لوطٍ عليه السلام، في قَوْله تَعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾، بأنّهم ﴿قَوْمَ سَوْءٍ﴾، والسَّوْءُ - بفتح السّين وسكون الواو

(1) حامد عوني، المنهاج الواضح للبلاغة: 2/ 151.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4897.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 162.

– مصدرٌ، أي القبيحُ المكروهُ، وأمّا بضمّ السّين، فهو اسمُ مصدرٍ لِما ذُكر، ولاشكّ أنّ الوصفَ بالمصدر أبلغُ وأقوى، منَ الوصف بالاسم، ولهذا آثر النّظمُ القرآنيُّ هنا الوصفَ بالمصدر، مبالغةً في ذمّ قوم لوطٍ، حتّى كأنّهم لكثرة فجورهم السَّوْءُ ذاتُه.

بلاغةُ إضافةِ السّوء إلى القوم في قوله: ﴿قَوْمَ سَوْءٍ﴾:

في قَوْله تَعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾، أضيف لفظ ﴿قَوْمَ﴾ إلى المصدر ﴿سَوْءٍ﴾، وهي من إضافة الموصوف إلى صفته للمبالغة، كما فى قولهم: رجلُ صدقٍ، وفى هذا التّعبيرِ ما فيه منَ الذمّ لهؤلاء الفاسقين من قوم لوط[1]؛ لأنّ السَّوء مصدرٌ ليس له قومٌ ورجالٌ وأهلٌ يضافون إليه، فتكونُ الإضافة مفيدةً للذمّ والإهانةِ، وكأنَّهم نُسبوا إلى السَّوء لصيرورتِه شِعارًا لهم من كثرة قبائحِهم.

إضافةُ الموصوفِ إلى صفتِه للمبالغةِ من فصيح البيانِ في السّياقِ

نُكتةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿فَٰسِقِينَ﴾:

وُصفَ قومُ لوطٍ في قَوْله تَعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ بالفسقِ، والفسْقُ: الخروجُ عن أوامرِ التّكليف، وهذا التّعبيرُ ككُلِّ التّعابير القرآنيّةِ مأخوذٌ من واقعيات الحياة عند العرب، فأصلُ الفِسْق من فَسقَتِ الرُّطبةُ عن قشرتِها، حين تستوي البلحةُ فتنفصلُ عنها القشرةُ حتّى تظهر منها الرُّطبةُ، فوصْفُ قومِ لوطٍ بالفسق، بمعنى أنّهم خرجوا عن أوامرِ الله، وخرجوا عنِ الفطرةِ الإنسانيّةِ السّليمة، فكانوا أوّلَ منِ ارتكبوا فاحشةَ إتيان الذُّكران حتّى نُسب إليهم، قال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأعراف: 80][2]، وفي التّعبير بالصّفةِ المشبّهة على وزن اسمِ الفاعل دلالةٌ على ثبوت هذا العملِ فيهم ودوامِهم عليه حتى استحقّوا لقبَ (الفاسقين) على سبيل الدّوام والثّبوت.

بيانُ خروجِ قومِ لـوطٍ بالفسق عـنِ الـفـطـرةِ الإنـسـانـيّـةِ السّليمةِ

(1) طنطاويّ، الوسيط: 6/ 388.

(2) الشعراويّ، تفسير الشعراوي: 15/ 9595.

دلالةُ العطْفِ بالواو في قوله: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ﴾:

عُطف قولُه تعالى: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ على ما قبْلَه بحرف الواو الدّالِّ على الجمعِ والاقتران، بمعنى أنّ اللّه الكريمَ جمعَ للوطٍ ﷺ، نعمًا كثيرةً متعدّدةً، فعطفَ على نعمة إيتائِه الحكمَ والعلمَ، ونعمةَ تنجيتِه من أهل القرية الّذين كانوا يعملون الخبائثَ نعمةَ إدخالِه في أهل الرّحمةِ[1].

عـطْـفُ نعـمةِ الإدخـــالِ في الـرّحـمـة على نـعـمةِ الحُكم والـــعـــلـــمِ والتّنجيةِ

بلاغةُ المجازِ في إدخال لوطٍ في الرّحمة:

اختلف المُفسّرون في قوله تعالى: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ﴾، فبعضهم أجْراه على ظاهره، وقال إنّ معناه: أدخَلْنا لوطًا في رحمتنا بإنجائِنا إياه، ممّا أحلّنا بقومه منَ العذاب والبلاءِ[2]، وبناءً على هذا التّقدير فالظّرفيّةُ مجازيّةٌ؛ لأنَّ الرحمةَ أمرٌ معنويٌّ لا يكون ظرفًا حقيقيًّا كالمكانِ، وفي هذا التّركيب الظّرفيِّ ما يُعطي تشخيصًا للرّحمة وتجسيدًا لها، وكأنّها المكانُ الآمنُ الّذي يستريحُ فيه هذا النّبيُّ الصّالحُ، وذهب غيرُهم إلى أنّ الآية تتضمنُّ مجازًا، ويحتملُ أن يكون مجازًا بالحذف، فيكون التّقديرُ: (في أهل رحمتِنا)، أي جعلْناه في جُملتِهم وعدادِهم، وبناءً عليه فالظّرفيّةُ حقيقيّةٌ.

أهلُ الرّحمة هم مـن يُـصطَـفون لـلـنّـبـوّةِ أو من يَدخلون الجنّةَ

كما يحتملُ أن يكونَ مجازًا مرسلًا، علاقتُه المحلّيةُ أي في جنّتِنا؛ لأنّها مكانُ الرّحمة، وتكونُ الظّرفيّةُ حقيقيّةً أيضًا، ويشهدُ لهذا الوجه حديثُ الصّحيحين: "قال اللّه ﷻ للجنّة: أنت رحمتي أرحمُ بكِ من أشاء من عبادي"[3].

ويجوزُ أن تكون الرّحمةُ مجازًا عنِ النبوّة، وبناءً عليه تكونُ الظّرفيّةُ مجازيّةً، ودليلُ هذا الوجه، قولُ اللّه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 162.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 473.
(3) متّفق عليه؛ رواه البخاريّ، الحديث رقم: (4850)، ومسلم، الحديث رقم: (2846).

نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٖ ﴿٣١﴾ [الزّخرف: 31] فردَّ الله عليهم: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ﴾ [الزّخرف: 32] أي: النّبوّة[1]، وبعضُهم اعتبر سياقَ الآية، فقال: أنّ إنّ رحمةَ الله الّتي شرّفها بالنّسبة إليه سبحانَه، هي هجرةُ لوطٍ منهم، ونجاتُه منَ الهلاك الّذي كُتِبَ عليهم، وإيتاؤُه حظَّه في الآخرين، والتجاؤُهُ له سبحانه، كما قال تعالى: ﴿۞فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ﴾ [العنكبوت: 26][2].

دلالةُ ضميرِ العظمةِ (نا) في الآية:

قُـدرةُ العظيمِ عـلى إهـلاك الظّالمين وإنجاءِ عبادِه المؤمنين

في قوله تعالى: ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، يتجلّى استعمالُ ضميرِ (نا) الدّالِّ على عظمةِ المتكلّم سبحانه، وجليلِ قدْره، فقد أهلك العظيمُ سبحانه قرَى لوطٍ وقلَبَها بمن فيها، ومع هذا العذابِ الفظيعِ، تدارك العظيمُ، برحمته عبدَه ونبيَّه لوطًا عليه السلام، فنجّاه من قومه الفاسقين، ومنَ العذاب المهين، وتفيدُ هذه الإضافةُ التّشريفَ والتكريم لتلك الرّحمة الّتي حلّت بهذا النّبيِّ الكريم، وما ذلك إلّا دلالةٌ على كرامته عند الله تعالى ومنزلتِه العاليةِ لديه.

نُكتةُ فصلِ جملة ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

بيانُ استحقاقِ لـــوطٍ عليه السلام للتّكريم باعتبارِه منَ الصّالحين

فُصِل قَوْلُه تَعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، عنِ الجملة السّابقة، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ﴾ لوجود شبْهِ كمال الاتّصالِ بينَهما[3]، فقد وقعت جُمْلَةُ ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ تعليلًا وبيانًا لعلّة استحقاقِ لوطٍ عليه السلام دخولَ رحمته سبحانه، وكأنّه نشأ سؤالٌ عن سبب إدخالِ لوطٍ رحمتَه تعالى فأجاب عن ذلك بأنّه منَ الصّالحين.

دلالةُ إدراجِ المؤكّدات في الآية:

المبالغةُ في الثّناء عـلى لـوطٍ عليه السلام ترفعُ قدرَه بيقينٍ

جاء قَوْله تَعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، مؤكّدًا بأداة التّأكيدِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 69.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4897.
(3) التفتازاني، مختصر المعاني، ص: 404.

(إنّ) التّي تُعدّ أمَّ باب التّوكيد، ثمّ شرّفه ربُّه سبحانه، بأن وصفَه بأنّه منَ الصّالحين، معدودًا من زمرتِهم، ومبالغةً في الثّناء على هذا النّبيِّ الكريمِ من ربّ العالمين، إذ يكفي اليقينُ برفيع قدرِه، وعلوِّ مقامِه، منَ الكلام الخبريِّ دون مؤكِّداتٍ، فلمّا سيقتِ المُؤكِّداتُ في الآية الكريمة، دلّ ذلك على متانة الوصْفِ بالصّلاح، وقوّةِ الاتّصاف به؛ لأنّ الّذي وصفَه به هو اللّه جلّ في علاه، وكفَى باللّه شهيدًا.

دلالةُ اسمِ الفاعلِ ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في ختام الجملةِ:

رسـوخُ الـوصـفِ في المفردِ بانتزاعِه مـنَ الـوصـفِ مجموعًا

ورد في قَوْله تَعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وصفُ لوطٍ ﷺ، بأنّه منَ الصّالحين ولم يقل إنّه صالحٌ، وذلك لأنّه جمعَ الوصفَ، ثمّ جعلَ الموصوفَ به واحدًا من جمعٍ، وفيه دلالةٌ على أصالة الفردِ في ذلك الوصف، على سبيل المبالغةِ، وكأنّه من طائفةٍ صارت كالنّوع المخصوصِ المشهورِ ببعض السّمات[1]، ولقد ورد هذا الأسلوبُ كثيرًا في القرآن، بالعُدول عن التّعبير بالمفردِ إلى التّعبير بالوصفِ مجموعًا، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأعراف: 83]، ﴿۞قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [النّمل: 27]، ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشّعراء: 29]، والآياتُ كثيرةٌ، وبين هذا الوصفِ والوصفِ السّابق الَّذي اختُتمت به الآيةُ السّابقةُ صنعةُ الطّباقِ لوجود شبْهِ التّضادّ بين ﴿فَٰسِقِينَ﴾ و﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، فكان الفسقُ علّةً لإهلاكِهم وتعذيبِهم، وكان الصّلاحُ علّةً لدخولِه في رحمة اللّه ونجاتِه من عذابِهم، وهو درسٌ تربويٌّ متينٌ لكلّ مَن يقرأُ النّصَّ المبينَ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

يـدلُّ اللّـفظـانِ عـلـى اجـتـمـاعِ البشرِ في مكانٍ وخُصَّت المدينةُ عُـرفًـا بـالـقـريـةِ الكبيرةِ

القريةُ والمدينةُ:

يشترك كلٌّ من لفظَي (القَرْيَةِ) و(المدينة) في الدّلالة على تجمّعٍ بشريٍّ في رُقعةٍ معيّنةٍ، وظاهرُ الاستعمال القرآنيِّ أنّه لا فرقَ بينهما،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 427.

ففي سورة الكهف أخبرَ الله أنّ موسى والخضر ﷺ قدما إلى قريةٍ فقال سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا﴾ [الكهف: 77]، ثمّ سمّى المكانَ ذاتَه بالمدينة عندما جاء وقتُ الفراق قائلًا: ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ [الكهف: 82]، وكذلك في قصّة لوطٍ ﷺ سمّى المكانَ قريةً بقوله: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ﴾ [الأنبياء: 74]، وسمّى المكانَ ذاتَه في سياق آخرَ بالمدينة في قوله: ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٦٧﴾ [الحجر: 67]، وكذلك في سورة يس عندما بدأ الحديثَ عن أصحاب القرية، بقوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣﴾ [يس: 13]، ثمّ سمّى المكانَ ذاتَه ﴿ٱلۡمَدِينَةِ﴾ [يس: 20] في قوله: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠﴾ [يس: 20]، وفي سورة يوسف ﷺ قال إخوة يوسفَ لأبيهم عن مصرَ ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: 82]، في حين وصفَ المكانَ ذاتَه بالمدينة: ﴿*وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ﴾ [يوسف: 30]، ولهذا قال ابنُ عاشور: "والمدينة والقرية مترادفتان، وقد خُصَّتِ المدينة في العُرف بالقرية الكبيرة"[1]، ولكن ذهبَ طائفةٌ من علماء البيانِ إلى تلمّسِ فروقٍ دلاليّةٍ واستعماليّةٍ بينهما، فقالوا إنّ غالبَ الاستعمال القرآنيِّ للقرية يكون في سياق الذّمّ والعذابِ، وهذا ظاهرٌ في كثير منَ الآيات[2].

المدينة متّسعة المُقام

وكذلك يظهرُ الفرقُ بالنّظرِ إلى اشتقاق كلِّ لفظ، فلفظُ القرية مشتقٌّ من (قَرَى)، وهو يدلُّ على جمعٍ واجتماعٍ، ومن ذلك القريةُ، سُمّيتْ قريةً لاجتماع النّاس فيها[3]، وأمّا لفظُ (المدينة) فهو مأخوذ من مَدَنَ بالمكان: أقامَ به[4] فيطلقُ حينما يرادُ الاتّساعُ والإقامةُ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/ 40.
(2) انظر السور والآيات الآتية: الأعراف: 4، والإسراء: 16، والأنبياء: 6، 11، 95، والحجّ: 45، 48.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قري).
(4) الجوهري، الصّحاح: (مدن).

فقالوا إنّ خبرَ مراودة امرأةِ العزيز ليوسف ﷺ عندما انتشر وذاع واتّسع مجالُه استعمل لفظَ المدينة بقوله تعالى: ﴿*وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: 30].

وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ [يس: 20]، بعد قوله: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [يس: 13]، فاستعمل لفظَ (المدينة) للإشارة إلى السّعةِ؛ إذ كانت قريةً واسعةً ممتدّةَ الأطراف، بدليلِ أنّ الرَّجل جاء يَسعَى من أقصاها، أي: من أبعد مواضعِها؛ ولذلك عبَّر عنها هنا ثانيا بلفظ (المدينة) بعد التّعبيرِ عنها أوّلا بلفظ (القَرْيَة).

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ [الكهف: 82]، فعبَّر عنها بلفظ (المدينة)؛ بعد أن ذكرها أوّلا بلفظ (القرية) لِما في لفظ (المدينة) من معنى الإقامةِ، فكان أنسبَ للسّياق للإشارةِ به إلى أنَّ النّاسَ يُقيمون فيها، فينهدمُ الجدارُ وهم مقيمون، فيأخذون الكنْزَ؛ ولهذا قال: (في المدينة).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والثلاثون،
سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 33 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-75-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 33 : المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-75-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1130605 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»